ان ايمانه العميق هو الذي يجعله يتعذب ويعاني خاصة عندما لا يجد الخلاص لانه يعتقد انه يقع اكثر فأكثر في الخطيئة . ويدرك انه يستحيل على الانسان ان يكون بلا خطية . فهو يصرخ صادقا(١٣):

ألاحقك أبدا بدمائي ، / أكرره بدون رتابة : / وماذا علي ان خرقت طبلتيك / ولم تبق ما لم تخرقه في ؟

لا بد ان تكون قصيدته الطويلة « من الاعماق صرخت اليك يا موت » في « القصيدة ك » قد نظمت قبيل اعترافه لجبرا بنية الانتحار لديه . لم يكن فقدان فلسطين او فقدان امه وحبيبته « كاي » او السوء الذي لقيه وشعره في وسط المفكرين العرب او الجماهير العربية ، لم يكن ذلك مبعث رغبته في الموت كما لم يكن اعتقاده بأنه خاطىء او ان الانسان الحديث مصيره الهلاك ، انما مبعث تلك الرغبة هو نظرته الى الحياة ، تلك النظرة المأساوية هي التي تجعله يرى هذه الاشياء قاسية ومظلمة أكثر مما هي في نظر الاخرين . انه يرى نفسه :

مقعد ، ولا / أهل ولا / بيت حسدا ، / كسيح ولا مسيح(١٤).

ان الانسان الحديث في نظره محاصر بالشرور بأنواعها ، تحطمه وتفقده انسانيته . ومع ذلك لا يرى توفيق المسيح فاعلا في هذا العالم . انه يؤمن ان انتصار الشر على الانسان هو هزيمة لا للانسان وحده بل وللمسيح ايضا . لذلك يقول في نهاية معلقته :

لا تتركني أجف أنتهي / أنساق للغتة ملوثا بعيدا عنك . / لا تدع الملك الكالح / يتعرى يغتصبني / ويدمغني بدمغته / لا ليتهرني / بل (الهي الهي) ليقهرك .

وهكذا نفهم توسله لله : « أعني . أعني » .

أي حديث عن صقر توفيق لا يكون تاما دون ذكر الكركدن ، ذلك الحيوان الاسطوري الجميل المعروف في الثقافة الغربية منذ القرن الثاني عشر . يظهر الكركدن في ميثولوجيا القرون الوسطى على انه حيوان قوي شرس يشبه الحصان وله قرن واحد في جبهته . وهو لا يمكن اخضاعه اذ يفضل الموت على الخضوع . يشتهر الكركدن بعفته وسعيه المستمر للحصول على عذراء عفيفة . وما ان يجدها حتى ينبهر بحضورها ويلقي برأسه في حضنها . والعذراء هي الطعم الذي يلقي به الصيادون أمامه . وما ان يستقر في حضنها حتى يمسكوه ويقتلوه . وتذهب الاسطورة الى ان قرنه العاجي يزيد من قوة الرجل الجنسية ويخفف من آلام الولادة عند المرأة ويزيل عن السم ميزة القتل . ويشبه الكركدن بالمسيح الذي رفع قرن الخلاص من أجل البشرية وعاش في رحم مريم العذراء.

نشر توفيق في العام ١٩٦٣ قصيدة طويلة تزيد عن اربعمئة سطر من الشعر الحر تحت عنوان : « بضعة أسئلة لاطرحها على الكركدن »(١٥)، ثم أعاد نشرها في معلقته . وكانت تلك آخر قصيدة رئيسية له قبل ان ينشر قصائد حبه « أيضا وايضا » في العام ١٩٦٧ . وبعد ذلك لم يصدر عنه شيء حتى وفاته .

قد تكون هذه القصيدة أغرب قصيدة في الادب العربي . يقيم توفيق فيها أوجه شبه بين أسطورة القرون الوسطى عن الكركدن وبين حياة المسيح ، وهو شخصيا ينسب نفسه الى الكركدن . ويبدو انه وجد اخيرا لنفسه الصورة المناسبة التي تتناسب ونظرته الى نفسه والى الحياة . فهو يسعى هنا وراء عذراء نادرة بتلهف حب افلاطوني ليجدها مصيدة أقامها له الصيادون . هي ترغب في الحب الجنسي والامومة والحياة . وهو لا يستطيع ان يقدم لها ذلك لانه اذا مات فيموت لوحده . واذا لم يمت كذلك فسيسقط على يد الصيادين . انه محاصر من جميع الجهات ولكنه يفضل ان يبقى صادقا لطبيعته :